بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾

لما أصابت المسلمين مصيبة يوم أحد قالوا: ﴿أنى هذا﴾ فأمر الله تعالى رسوله أن يجيبهم: ﴿هو من عند أنفسكم﴾، وقال الله تعالى لسيد ولد آدم يوم القيامة عليه الصلاة والسلام: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾. وليس يجادل كثير من المسلمين في هذه الحقيقة البينة، ولكنهم مع ذلك في مظهم وأهمهم أحوالهم يصدونه بهذه الحقيقة إلى الخيال فيجعلونه عن أسباب مصائبهم في ذات أعمال غيرهم لا في نياتهم وأعمالهم أنفسهم. وإلى القارئ لهذه الأمثلة القليلة من كثير:

١) لهجت المسلمون (علماؤهم وعوامهم، ذكورهم وإناثهم، أفرادهم وجماعاتهم) باستنكاره قرار الإدارة العلمانية الفرنسية بمنع الطالبات المسلمات من تغطية رءوسهن في المدارس الفرنسية كما تمنع الطلاب اليهود والنصارى وغيرهم من استعمال المميزات الدينية.

ولم أسمع صوتاً واحداً استنكر مفارقة الصبايا المسلمات قراريوتهن إلى المدارس العلمانية عدة ساعات في اليوم للاختلاط بالمراهقين من كل ملة بلا رقابة شرعية غير رقابة النظام العلماني الذي لا ينكر بل قد يحمي العلاقات الجنسية في حدود لا يقرها شرع الله، بل ولا تقرها تقاليد أكثر العرب في الإسلام وفي الجاهلية، وفي هذا مخالفة صريحة لحدود الله تعالى للمرأة المسلمة تفوق كشف الرأس: ﴿وقرن في بيوتكن﴾.

٢) ولهجت المسلمون جميعاً باستنكار وبه اعتداء غير المسلمين على المسجد البابري في الهند بعد أن عد المسلمون أنفسهم لذلك بترك الصلاة فيه. ولم أسمع أنه فر أحد من المسلمين (أو مؤسسة من مؤسساتهم) استنكر المصيبة الأكبر: هجر المسلمين لهذا المسجد خمس عشرة سنة لا يركع فيه لله ركعة واحدة، وأنهم لا يطالبون بعودة للصلاة فيه بل (القيمة الأثرية) تمثيلاً للثقافة العلمانية وجانباً لشرع الله تعالى في كتابه: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة﴾ وفي سنة رسوله عليه الصلاة والسلام: «إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن» رواه مسلم.

٣) ولهجت المسلمون جميعاً باستنكار وبه اعتداء يهودي على المصلين في ما يسمى (المسجد الأقصى الإبراهيمي الشريف) وقتل عدداً من المصلين قبل أن يتمكن بعضهم منه فقتله، وكان هذا الأمر أهم ما اهتم به خطباء الجمعة والأئمة في القنوت، والمفكرون الإسلاميون والعلمانيون في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية بضعة أسابيع.

ولم أسمع أحداً من المسلمين تساءل: لماذا يقدم يهودي على قتل المسلمين في هذا المكان وتأهيله (وهو يعلم أنه مقتول لا محالة وقد ترك خلفه وصية واعتذاره لأهله)؟ ولم أسمع أحداً منهم بين أن السبب: التنافس على معصية الله تعالى ومخالفة أمر رسوله صلى الله

النبي صلى الله عليه وسلم لأمته ألا يتخذوا القبور مساجد، فيما اتفق عليه الشيخان وغيرهما: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»
قالت عائشة رضي الله عنها: (يحذر مثل الذي صنعوا). أي: مثل ما صنعوا فهذا المكان بدأ الشرك بالله فيه منذ اتخذه اليهود مزاراً بدعوى أنه مقر إبراهيم وزوجته وأخته وزوجته، وفي القرية الخامسة الأخرى بنى فيه الصليبيون كنيسة، فاتبع النصارى اليهود في اتخاذ قبور الأنبياء (بزعمهم) مسجداً، تصديقاً لخبر النبي صلى الله عليه وسلم مما أوحي إليه، وفي القرية السادسة الأخرى أخذه صلاح الدين الأيوبي فحوله المسلمون مسجداً وبنوا فيه سبعة أوثان باسم إبراهيم وزوجته وأخته وزوجته ويعقوب وزوجته ويوسف عليهم السلام (طهرهم الله من الشرك وأهله). وبهذا اقتدى المنتمون إلى الإسلام والسنة باليهود والنصارى في التقرب إلى الله بمعصيته تصديقاً لخبر النبي صلى الله عليه وسلم مما أوحى الله إليه: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه»، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟ أي: من غيرهم؟ متفق عليه، بل زادوا عليهم ثلاثة أوثان.
والحقيقة التي يجهلها ولا يحب أن يذكرها أكثر المنتمين إلى الإسلام أنه ما حرم الله لفظاً - الحرم الإبراهيمي الشريف ليس حرماً ولا إبراهيمياً ولا شريفاً، وهو مثل مسجد الضرار لم يأت على التقوى منه أول يوم، بل على الإثم والابتداع والشرك في عهد اليهودية والنصرانية والمشترك بينه المسيحية واليهود، ولا تجوز الصلاة فيه فرضاً ولا نفلاً، وعندما وقفت عليه منذ ثلاثة سنة تقربت إلى الله بصدم الصلاة فيه، إذ لا يجتمع لعنة الله وعبادته في مكان واحد.
وقد حاول بعض أهل السنة الصحيحة إبعاد المسلمين عنه بناء مسجد على التقوى قريباً منه ولكنه الشيطان والنفس الأمارة بالسوء يزينان الشر لصاحبها ويذكرانها الخير.
ومسجد الضرار لم يصل إلى ما وصل إليه مسجد (مدينة الخليل) من محاذاة الله فلم ينه فيه سبعة أوثان ولا بني على أربعة قبور المنتمية إلى موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، وللتكريس فساد نية مؤسسيه جعل أهلاً لتحريم الله على رسوله الصلاة فيه: (لا تقم فيه أبداً)، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه بهدمه مع صلاح نيته وسلامه بسبب فساد نية المؤسس.
وأكثر المسلمين يقدسون فلسطين أكبر معصية في حياة المسلم منذ أعلنه قيام الدولة اليهودية في فلسطين وأنه السبب في حروبها ينحصر في ظلم اليهود للعرب، وفي وعد بلفور، وفي إمداد كل من أوروبا وأمريكا للدولة اليهودية بالمال والسلاح والهوية السياسي.

ولا شك أن هذا سبب (مادي) ساعد على حدوث النكبة ولكنه سبب ثانوي، أما السبب الأول والأهم فيتبين من قول الله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ لا شك أن بلفور وفرنسا وعدد من دول أوروبا ثم أمريكا ساهموا جميعاً في حدوث النكبة أو استمرارها أو تعقيدها، وأن الحركة الصهيونية بسعيها لإنشاء الدولة اليهودية في فلسطين وجلبها اليهود من أوروبا وغيرها لتحكموا الأكثرية من العرب التعسة كانوا فلسطينيين قبل أن يسلم أكثرهم ويصيروا عرباً، بل قبل أن يستوطن العبرانيون ويطردوا منها (كما يقول ليوبولد فايس اليهودي المتهود) الذي عالج القضية بعض سنين) لا شك أنها عالجت الظلم الألماني لليهود بظلم العرب وثأرت لنفسها من غير المقتدين عليه. ولكن الله الذي يدبر الأمر كله ويصرفه بعلمه وحكمته وعدله قال قولة الحق: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ وقال تعالى: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ سقطت فلسطين البلاد العربية إلى الثروة والترف ثم إلى الإسراف والفساد، ولذلك نكبت العرب قبل غيرها، وكما أن الله تعالى ﴿لا يحب المفسدين﴾ فهو تعالى ﴿لا يحب المسرفين﴾ والإسراف مثل الشرك في أنه لا يدعو إليه الغريزة (مثلما تدعو إلى الطعام والمال)، وربما أشار ذلك إلى الحكمة في قول الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

ولم يكن الشرك غائباً عن فلسطين الأرض المباركة المقدسة التي سماها الله لبني إسرائيل، وللروم قبل الإسلام العرب بعده، بل إن أوثانه الشرك الأكبر بالمقامات والمزارات والأضرحة والأنصاب تشوه الأرض المباركة حول المسجد الأقصى، وقد ظهر لي من بحثي لحصر هذه الأوثان (حصلت عليه من بعض موظفي مديرية الأوقاف الفلسطينية في القدس) أن نصب المنتمية إلى الإسلام والسنة في فلسطين مجتمعة. ومن هذه الأوثان أكبر من نصب تحرفه الضلال في فلسطين مجتمعة. ولهذه المعصية هي أول المويقات وأشنعها: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً﴾، «الموبقات سبع: الشرك بالله ...» متفق عليه، ولا حاجة للمخلوق مطلقاً - أياً يدعو المخلوق الميت وينسى الحي القيوم الذي لا يموت، والشرك - مهما كان انتماؤه - تقرب بشركه إلى الله فلا يستغفره كما قد يفعل الزاني والسارق وشارب الخمر. وكان الإخوة في فلسطين (قيادة وحكماء وشعراء وصحفيين) يلقون اللوم على بقية العرب لتفريطهم وتشتت الجهود وانصراف الجوائز لتميز بعضهم عن بعض، ولكن أول خطوة خطوها في سبيل التحرير: مطالبتهم بالاستقلال عن الأردن في بقعة صغيرة لا تتسع لأكثر من ثلثهم.

- وكانوا يدعون أنه الحدود بين الدول العربية رسمت في لندن، فرسمت حدودهم في أوسلو بسعي حثيث منهم.
- وكانوا يلقون اللوم في مصيبتهم على دعوى الفساد المالي والإداري في الدول العربية؛ فظهرت روائح الفساد المالي والإداري في السلطة الفلسطينية منذ أول يوم.
- ومما لا يقبله الشرع ولا العقل أن تمنع الدولة اليهودية عن إنشاء مؤسسة للقمار وما يتبعه من الموبقات منذ احتلالها فلسطين قبل نصف قرن، ويكون أول مشروع تجاري وسياحي تنذر للسلطة الفلسطينية: مؤسسة للقمار وما يتبعه من الموبقات في أول مدينة فلسطينية (تحررها صاحبة أوسلو).
- ومما لا يقبله الشرع ولا يصدقه العقل أنه تتميز الأرض المباركة المقدسة على بقية البلاد العربية بل على بقية بلاد الشام بتفشي لعن الرب ولعن النبي، وفي تاريخ النكبة الفلسطينية اتهمت فتاة يهودية بسب النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه لم يتهم يهودي أو يهودية مجرد تهمة بسب الرب، فهو امتياز خاص للمنتمين إلى الإسلام والسنة الداعية والمدعوة لهم بالنصر، والمدعية بالجهاد والشهادة، ولقد قرأت لأحد كبار الدعاة في المنطقة أنه كلمة السر في إحدى الليالي لإحدى فصائل الفدائية كانت (لعنة الرب) لأنه لا يتوقع أنه يتعرف ذلك غيرهم هداهم الله جميعاً.
- وبعد هذا ليس من الغريب ألا نسمع من قادة المقاومة والانتفاضة على اختلاف انتماءاتهم كلمة واحدة تحذر المقاومة والمنتفضة ومؤيديهم - فضلاً عن مخالفيهم - من الشرك الأكبر بالمقامات والمزارات، أو تدعوهم لإفراد الله بالعبادة، أو تحذرهم من البدعة أو تدعوهم للالتزام السنة بل إنهم ليتهمون الدعاة إلى ذلك بالتثبيط عن الجهاد، وإنما الجهاد الحقيقي مرحلة أخيرة من مراحل الدعوة لم يتهيأ له الصادقون عند الحق حتى تكون فتنة وتكون الدين كله لله، ولم يعرف أحد من القومية العربية أو الهوية الفلسطينية: (لتكون كلمة الله هي العليا)، وهذه رسائل حسن البنا وكتب تقي الدين النبهاني والخميني، وهذه أشرطة أسامة بن لادن وأيمن الظواهري، وهذه تصريحات أحمد ياسين والرنتيسي لم يوجد فيها ما يخرجها القاعدة الفاسدة: الانشغال والإشغال بالمهم عن الأهم وبالفاضل عن الفريضة وبالمكروه عن الحرام.
هدى الله الجميع لأقرب من هذا رشداً وتجاوز عمن مات لا يشرك به شيئاً.